❑ قَالَ المصَنِّفُ: (**الرَّابِعَةُ : الصَّبْرُ عَلَى الأَذَى فِيْهِ**) .

📖 يحتاج العبد أن يتعلم الصبرَ مطلقًا في كلِ أحواله؛ **فما الصبر لغةً واصطلاحًا ؟**

● **الصَّبْرُ – لغةً واصطلاحًا – :**

قال ابن سِيْدَه – رحمه الله – : " أصلُ الصَّبْرِ : الحَبْسُ ، وكلُّ من حبس شيئًا ؛ فقد صبره"(١)

وقال الجوهريُّ – رحمه الله – : " حبسُ النفسِ عن الجزع ، وقد صبر فلانٌ عند المصيبة يصبر صبرًا " (٢) .

● **أقسامُ الصَّبْرِ :**

(حبسُ النفس على **طاعة الله** ، وحبسها عن **معصيته** ، وعلى الصبر على **أقداره**) .

فالعبد يصبر على طاعة الله ؛ حتى يؤدِّيَهَا على الوجه الذي يرضيه.

ويصبر عن معصيته ، وألا يقربها ؛ ابتغاء مرضات الله.

ثم يصبر على أقداره خيرها وشرها ، وإن كان فيها ما يشقُّ عليه ؛ لِعِلْمِهِ أَنَّهُ مُقَدَّرٌ ، وأنَّ الإيمان بالقدر ركنٌ من أركان الإيمان .

○ **بالصبر واليقين تُنَالُ الإمامةُ في الدِّيْنِ :**

قال – تعالى – : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة:٢٤] .

فبالصبر واليقين تُنَالُ الإمامةُ في الدين والعلو والرفعة ؛ فصاحبُ الشهوة يحتاج إلى صبرٍ ، ومَنْ عنده شبهةٌ يحتاج إلى يقينٍ ؛ فبالصبر تُدفع الشهوة ، وباليقين تُدفع الشبهة .

فالعبد الذي تلبَّس بالشبهات ؛ لن تُزال من قلبه ، ولا تنصرف عنه ؛ إلا باليقين ، وهي درجة

---

(١)" اللسان " (٢٦٧/٥) – مادة (صبر) – .

(٢) " الصحاح " (ص :٥٧٨) .

إيمانٍ عالية ، وكذلك الذي تُعرَضُ له الشهوات ؛ فحتى يتركها ؛ لابُدَّ له من الصبر ، فإن لم يتحل بهِ ؛ فلن يستطيع ترك معصيةِ اللهِ ، بل سينفسخُ عزمُهُ عند رؤيتها ، بسبب ضعفِ الصبر، وعدم رياضة النفس عليهِ ، ولا على التصبُّرِ ؛ قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « **وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ** » [(١)].

فإذا صبر العبد عن معاصي الله تعالى ، أو على أقدارهِ المؤلمة ، وغيرها من مكاره الدنيا ، وتحلَّى بالعفة والقناعة والرضا بما قُدر عليه ، صبَّره الله .

وتصبَّرْ : أي تكلَّف الصبر ، حتى يرزقه الله إياهُ ؛ فمن الناس من يقول : ليس عندي صبرٌ ، ولا أتحمل ؛ فأنا ضعيفٌ أمام شيءٍ معين ؛ فأنا قويٌّ في حفظ القرآن وغيره من الطاعات ، ولكن هناك أشياء أنا ضعيفٌ أمامها ، فمثلاً : لا أستطيع السَّيْطَرَةَ عَلَى نَفْسِي عند المناقشةِ ، وأنتصرُ لها ، أو أنا سريعُ الغضب ، وممكن أن أشاهدَ التِّلْفَازَ ؛ **فَمَاذا أَفْعَلُ ؟**

أقولُ – لك – : إنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ لك : « **وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ** » [(٢)] ؛ أي : تتكلَّف الصبر ، وتتجلَّد ، ومع الوقت يصبحُ هذا التصبُّر صبرًا ، وهو الذي حقيقَتُهُ : حبسُ النَّفْسِ ؛ **فالأوَّلُ** : تكلُّف ، ثم يصبحُ طَبْعًا وسَجِيَّةً ؛ **حتى** يَصِلَ الإنسانُ إلى – مَقَامِ – (**الرِّضَا**) الذي هو أعْلَى مِنَ الصَّبْرِ . ف

○ الصَّبْرُ رَأْسُ الأمْرِ :

فالعبد إذا لم يحقق منزلة الصبر ؛ فلن يستطيع أن يسلك طريق الدين ؛ لأنَّ الدين كلَّه يحتاج إلى صبر ؛ فليس هناك منزلة في الدين لا تحتاج إليه ؛ فالأمانة تحتاج إلى صبر ؛ فمثلاً : شخص

---

(١) أخرجه البخاريُّ (١٤٦٩،٦٤٧٠) ، ومسلمٌ (١٠٥٣) .

(٢) أخرجه البخاريُّ (١٤٦٩،٦٤٧٠) ، ومسلمٌ (١٠٥٣) .

قائمٌ على جمْعِ الزكوات ؛ ليُنْفِقَهَا على الفقراء ؛ فهو وكيلٌ على هذه الأموال ؛ فهذا الشخص يحتاج إلى صبر ؛ لأنه إذا كان فقيرًا ، وليس عنده صبرٌ ، فسوف تغلِبُ عليه شهوة المال ، وسيسرق من أموال الناس.

أو شخصٌ يعملُ أمينَ مخزنٍ ، وليس عنده صبرٌ ، فممكنٌ أن يتجرَّأَ ويختلِسَ من الأشياء القائم عليها ، أو المجاهِدُ في ساحة القتال إذا لم يتحلَّ بالصبر مَا استطاع الاستمرارَ في قتال العدو ؛ فسيضعُفُ ، ويفتُرُ عزمُهُ ، ويترك ساحة القتال ، ويفرُّ يوم الزحف .. وهكذا ؛ فالصبر رأس الأمر ؛ فإذا لم يكن هناك صبر لم يستطع أحدٌ تحقيقَ أيِّ منزلةٍ من منازل الدين ؛ لذلك وضعه الإمامُ ابن عبد الوهَّاب – رحمه الله تعالى – في المرتبة الرابعة ؛ فقال : " **العلمُ** ، وهو : معرفةُ اللهِ ، ومعرفةُ نبيهِ ، ومعرفةُ دين الإسلامِ بالأدلةِ ، ثم **العملُ** به – أي : بهذا العِلْمِ – ، ثم **الدَّعْوة** إليه ، ثم **الصَّبْرُ** على الأذى فيْهِ ".

○ العلمُ لا ينفعُ وحدَهُ بدون الصبرِ :

فإذا كان العبد صاحب علم ، وليس عنده صبر ؛ فلن يستطيع العمل بهذا العلم ؛ فهناك أشخاص كُثُرٌ أصحابُ علمٍ ، ولكنهم في الواقع العمليّ ، وخارج نطاق حلقات العلم ، يختلفون كثيرًا ؛ فهُم أمام (**البعض** !) يحاولون الظهور بأحسن مظهر ؛ أمَّا في حياتهم الطبيعية؛ فليس عليهم رقيبٌ إلا الله ؛ فحالهم – مثلاً – مع أولادهم ، أو في بيتهم ، أو في الشارع مختلفًا تمامًا !! لماذا رغْمَ أنهم أصحابُ علمٍ ؟! لأنهم لم يحقِّقُوا منزلة الصبر ؛ فما استطاعوا العَمَلَ بالعلمِ .

فالصبر منزلة مهمةٌ وغاليةٌ ، لو غفل العبد عن أهميتها ما استطاع الوصول إلى أيِّ بابٍ من

أبواب الدين ؛ فمثلاً : إذا أرادَ قيامَ الليل ؛ فهو يحتاج إلى صبر ، أو صوم النهار ؛ فيحتاج إلى صبر ، أو تريد الزوجة طاعةَ زوجها ؛ فهي – أيضًا – تحتاج إلى صبرٍ ؛ لأنَّ ولبشريته قد يكون سيءَ الخُلُق أو حادَّ الطبع ؛ فإذا لم تتزود بالصبر ؛ ما استطاعت حُسْنِ التبعُّل .. وهكذا في جميع أبواب الدين.

○ أجرُ الصَّابرين بَغَيْرِ حِسَابٍ :

فالصبر منزلة عالية لذلك ؛ قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠] ؛ عن سُلَيْمَانَ بْنَ الْقَاسِمِ ، يَقُولُ : " كُلُّ عَمَلٍ يُعْرَفُ ثَوَابُهُ إِلَّا الصَّبْرَ. قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [الزمر: ١٠] قَالَ : كَالْمَاءِ الْمُنْهَمِرِ " ([1]) .

لأنَّ الإنسان كي يصبرَ يحتاجُ إلى جهاد نفْسٍ حقيقيٍّ غيرِ مدخول ؛ فإذا جاهد نفسَهُ بصدقٍ، وتحمَّل الأذى والتعب والشقاء من أجل هذا الدين ؛ فهذا دليل صدقِهِ ، وحبِّهِ لله ، ودليلُ رغبتهِ فيما عند الله ؛ فإذا صبر على هذا الوجهِ ، أعطاه الله في الآخرة أجره بغير حسابٍ .

○ صعوبةُ طريقِ الدعوةِ :

فالدعوة ليست أمرًا سهلاً ، وطريقها ليس مفروشًا بالورود ؛ فطريق الدعوة له من الشقاء والتعب ما الله به عليم ، وهو أصعب الوظائف وأشرفها على الإطلاق ؛ لأنها وظيفة الرسل والأنبياء ، ولكن الأذى فيها شديدٌ ، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى هذا في القرآن ، ونبَّهَ الأنبياء والرسل عليه ؛ حتى يعلم من بعدهم أن طريق الدعوة ليس يسيرًا ؛ كما يظن كثيرون ؛ ومنهم

([1]) أخرجه ابنُ أبي الدنيا في " **الصبر والثواب عليه** " (برقم : ٢٠) ، ومن طريقه ابنُ الجوزيِّ في " **ذم الهوى** " (ص : ٦٠) .

من قد يحسد الداعي – إلى الله – على حبِّ الناس له ؛ فهؤلاء يرون الجانب المضيء في حياة الداعي ، ولكنهم لا يرون الأذى والتعب والشقاء الذي تجرَّعَهُ إلى أن وصلَ لهذه المكانةِ !!

وهذه سُنّة ماضية ، فأشدُّ الناس ابتلاءً ، وتعُرُّضًا للأَذَى أفضلُهُم ، وهم الأنبياء والمرسلون ، وقد أمر الله – تعالى – نبيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالصبر وبأن يقتدي بمن سبقه من المرسلين ؛ قال – تعالى –: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف:٣٥].

○ اختلافُ الناسِ في تقبُّلِ مَنْ يدْعُوهُم :

الناس أنواعٌ مختلفةٌ ، وليس كلُّ من تدعوهم يستمعون لك ، ويتقبلون منك ما تقول ، ولكن هناك المتربص لك ، والمتصيد لأخطائك ويريد وقوعك في الزلل ، ومن يريد أن يُظْهِرَك أنك متشدِّدٌ ، ويثبتُ لنفسِهِ أنَّك على خطأ ، وأنه على صوابٍ ، أو أنه يعلوك في العلم أو المنزلة أو يستحق أفضل مما أنت فيه ، وهكذا ؛ فليس كلُّ من تدعوهم تجدُ منهم استجابةً؛ فقد تدعو مجموعةً من الناس ، ويستجيبون لك ، ويشرحُ الله صدورهم للحق ، ولكن قد تدعو آخرين ، ولا يتقبَّلُون كلامَكَ – إطلاقًا – ، وأيُّ كلمةٍ تقولها تخالف هواهم، ينفِرُون منها ، ويتهمونَكَ بالشدة والغلظة والتنطُّعِ ، وقد يحاولونَ أن يهدمُوا دعوتَكَ ؛ كي ينتصروا لأنفسِهِم ؛ لأنهم لا يقبَلُون كلامك ؛ فدعوةُ المخالف تحتاج إلى خبرةٍ وحكمةٍ .

○ صعوبةُ دعوةِ وإقناعِ المخالفِ :

فدعوة المخالف غير دعوة المتقبل المنقاد ؛ فهناك أناسٌ يتقبَّلُونك وأنت تدْعُوهُم ؛ كَمَا في حَلَقَات العِلْمِ ؛ فهذه أَيْسَرُ أنواعِ الدَّعْوة ؛ فتكون المشقة عليك – فقط – في تحضير الدروس والقراءة وجمْعِ المادة العلميَّة ، وهذا – أيضًا – ليس سهلاً ؛ لأنها أمانةٌ سوف تحاسَبُ على كل كلمةٍ تقولها ؛ فلابُدَّ من الأمانة في النَّقْلِ ، وأمانةٍ في المصدر الذي ينقُلُ منْهُ الكلامَ .

فالمشقة في تحضير الدَّرْسِ ، ولكن ليس هناك مشقة كبيرة في إقناعِ المستمعين ، ولكنَّ المشقةَ تأتي في إقناع المخالفين ؛ فالمخالفُ الذي لا يحبُّ الاستقامة على هذا الطريق ؛ فدعوته من أصعب ما يكون ، ودائمًا الرسلُ يرسلون في المخالفين – في الغالب – الذين ابتعدوا عن التوحيد ؛ فيجدُون التكذيبَ والإهانةَ والسَّبَّ وأنواعَ الأَذَى ، ولكنَّهم تحمَّلُوها كلها في سبيل الله.

○ صبرُ الرُّسلِ عَلَى الأَذَى في سبيلِ الدَّعْوةِ :

قال الله سبحانه وتعالى لنبيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِىءَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ ﴾ [الأنعام:١٠] ؛ فبيَّن له أن كلَّ الرسل التي جاءت من قبله كُذِّبوا ؛ مواساةً له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وطمأنينةً ؛ كي يُسليه في مصيبته وأذَى قومهِ له ؛ فلابد أن يعلم الداعي أن هذا هو طريقُ الدعوة ؛ قال – تعالى– : ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ [الذاريات:٥٢] ؛ أي : يا مُحَمَّد لا تحزن؛ فليس أنت – فقط – من فُعل فيه ذلك ، ولكن كل الرسل من قبلك أوذوا وكُذِّبوا ، وقيل عنهم : سحرة ومجانين !! أي : ابتُلُوا بجميع أنواع الأذى ؛ فهذا الأذى ليس خاصًّا بك ، ولكن هذه سنةُ اللهِ ؛ فكلُّ رسولٍ يأتي لابُدَّ له من مخالفٍ ؛ قال – تعالى– : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ [الفرقان:٣١].

○ وقد أمر الله عز وجل نبِيَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالصبر :

قال – تعالى – : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلاً (٢٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾ [الإنسان:٢٣-٢٤] ، وسياق الكلامِ يقتضي الشكر ؛ لأن القرآنَ نعمةٌ ، والنعمةُ مناطُهَا الشكر ، والابتلاءُ مناطُهُ الصبر ؛ فالقرآن نعمةٌ من أعظم النعمِ.

إذن ؛ فلماذا طلب الله – عزَّ وجلَّ – منه ؛ تحقيقَ الصبر – هنا – مع أن الصبر عند الابتلاءِ، والقرآنُ ليس ابتلاءً؟

والجوابُ : لأنه سيحمل القرآنَ ، ويبلِّغُهُ للناس ، ويدعُو بهِ ، وسوف يجِدُ الأذى ، ولابُدَّ ؛ فقال له : ﴿ فَاصْبِرْ ﴾ ؛ أي : على الذي ستجدُهُ ؛ حينما تدعُو إلى توحيد اللهِ ، وتركِ عبادة الأوثانِ، والدخولِ فى دين الله، وترك العاداتِ والتقاليدِ الباطلة ؛ فستجدُ الابتلاء ؛ فلابُدَّ لك من الصبر .

○ اجتهادُ الشيطان على الداعي ؛ لأنَّهُ عدو له ولغيره من البشر :

قال – تعالى – : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام :١١٢] ؛ فكلُّ نبيٍّ له شياطين من الإنس والجن ، وكذلك الذي يعمل في الدعوة له شياطين من الإنس ممن يؤذيه ، ويسخروا منه ، أو يسبُّوه ، وشياطين كذلك من الجن .

○ طرقُ أَذَى الشياطين :

من طرق أذى الشيطان – له – أنْ يجعلَهُ يحْزَنَ ؛ كي يُقْعِدَهُ ، ويَسْتَنْفِذُ جُهْدَهُ ووقتَهُ في الحُزْنِ والهَمِّ ؛ كأن يُضْعِفَ أداءَهُ في الدَّعْوَةِ لِدِيْنِ اللهِ – ولكن إذا أتى في حالٍ أَحْسَنَ ؛ سيكُونُ عَطَاؤُهُ أَفْضَلَ ؛ فَمَثَلاً : إِذَا قَامَ أَحَدٌ للصَّلاة ، وهو مصابٌ بالصُّداع ، سيصلِّي وهو لا يعلم ما يقولُهُ ؛ فأداؤهُ للصلاة سيكون ضعيفًا ، ولكن إذا صلَّى وهو صحيحٌ من المرض ؛ فالحال مختلفٌ – .

وكذلك الشيطان يأتي للدَّاعي ؛ فيُضْعِفُ عزمَهُ ، ويصيبُهُ بالنكد والحزن ؛ لكي يضعِفَ أداءَهُ ؛ حتى لا يبذلَ لدين الله ؛ فالشيطانُ يحاولُ أن يستزلَّ قدمَهُ في المعاصي بقدر استطاعتهِ ؛ فإذا لم

يكن أمامَهُ إلا باب الحزن ؛ اجتهد في أنْ يُحْزِنَ الداعي .

وأما إذا كان الداعي ليس من أهل السنة والجماعة ؛ فيأتي الشيطان له ، ويوقعُهُ في مزيد الشبهات ، ومزيدٍ في البدَعِ ؛ فكُلُّ أحدٍ له مَدْخلٌ يدخلُ له منه الشيطان ؛ **فماذا نفعل – إذن –** ؟ نستعيذُ بالله منه ، ونستعين به – تعالى – على أداء الأعمال ، وعلى كل شيءٍ يرضيه عنَّا .

❑ **ثُمَّ قَالَ المُصَنِّفُ :** (**والدَّلِيْلُ ؛ قوْلُهُ – تَعَالَى – :﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾**) **[العصر : ١–٣]**.

📖 **﴿ وَالْعَصْرِ ﴾** : أقسم ربُّنَا بالعَصْرِ ، و (العَصْرُ) : اسمٌ للدَّهر والليل والنهار ، اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي تَأْوِيلِ الآيةِ ؛ قال الطبريُّ : " وَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ: أَنْ يُقَالَ: إِنَّ رَبَّنَا أَقْسَمَ بِالْعَصْرِ وَالْعَصْرِ اسْمٌ لِلدَّهْرِ، وَهُوَ الْعَشِيُّ وَاللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَمْ يُخَصِّصْ مِمَّا شَمَلَهُ هَذَا الِاسْمُ مَعْنًى دُونَ مَعْنًى ؛ فَكُلُّ مَا لَزِمَهُ هَذَا الِاسْمُ ، فَدَاخِلٌ فِيمَا أَقْسَمَ بِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ " ([1]) ؛ فهو اسمٌ للزمان المطلق ، ولله أن يُقسِمُ بما شاءَ عَلَى ما يشاء ، ويَحْرُمُ على الإنسان القَسَمُ بغير الله – تعالى – .

﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ : وهنا أطلقَ أن كلَّ بني آدم في خسارة ، **ثم استثنى أربعة :**

❍ **هَؤُلاءِ اتَّصَفُوا :**

١ – **١– بالإيمان :** والإيمان قولٌ وعملٌ ، يزيدُ وينقصُ ، يزيدُ بالطاعةِ وينقصُ بالمعصيةِ ، وهذا اعتقادُ أهلِ السنة والجماعة قاطبةً .

٢– والعمل الصالح : لأنَّ الأعمال من الإيمان ، والعمل يشمل عمل القلب واللسان

([1]) راجع : (" **تفْسِيْر الطَّبَرِي** " ٦١٢/٢٤) .

والجوارح، وهذا من أصول الاعتقاد الصحيح ، وَشَرْطَا قبولِ العمل : الإخلاصُ ، والاتباعُ ، وفي السورة عُطف الخاص على العام ؛ فعُطف العملُ على الإيمان ؛ لبيان أهمية العمل ، وأنَّ به تكون نجاةُ العبد إذا أخلص النيةَ ، وحقَّقَ الاتباعَ .

قال – تعالى – : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤٢) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللّهُ لَقَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُواْ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ٤٢-٤٣].

فالعمل سبب لدخول الجنة ، وليس عوضًا ؛ أي : أن عملي لا أستحق به دخول الجنة ؛ قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « **وَاعْلَمُوا أَنْ لَنْ يُدْخِلَ أَحَدَكُمْ عَمَلُهُ الجَنَّةَ** » [(١)] ، وبهذا يزول الإشكال عند من ظنَّ تعارضَ الآيةِ مع الحديثِ .

٣– التواصي بالحق : بأن يحثَّ بَعْضُنَا بَعْضًا على فِعْلِ الخَيْرَاتِ ، وتركِ المنكراتِ ، وهذه من خصال أهل الإيمان ؛ قال – تعالى – : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧١].

٤– التواصي بالصبر : الصبر عن معاصي الله تعالى، والصبر على طاعة الله ، والصبر على أقدار الله ، وقد سبق – آنفًا – الكلام على أهمية الصبر.

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٦٤٦٤) ، ومسلمٌ (٢٨١٨) .

قال ابنُ القيم – رحمه الله تعالى – ([1]) :

" فَجِهَادُ النَّفْسِ أَرْبَعُ مَرَاتِبَ – أَيْضًا – :

● **إِحْدَاهَا** : أَنْ يُجَاهِدَهَا عَلَى تَعَلُّمِ الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ الَّذِي لَا فَلَاحَ لَهَا وَلَا سَعَادَةَ فِي مَعَاشِهَا وَمَعَادِهَا إِلَّا بِهِ، وَمَتَى فَاتَهَا عِلْمُهُ شَقِيَتْ فِي الدَّارَيْنِ.

● **الثَّانِيَةُ** : أَنْ يُجَاهِدَهَا عَلَى الْعَمَلِ بِهِ بَعْدَ عِلْمِهِ، وَإِلَّا فَمُجَرَّدُ الْعِلْمِ بِلَا عَمَلٍ إِنْ لَمْ يَضُرَّهَا لَمْ يَنْفَعْهَا.

● **الثَّالِثَةُ** : أَنْ يُجَاهِدَهَا عَلَى الدَّعْوَةِ إِلَيْهِ، وَتَعْلِيمِهِ مَنْ لَا يَعْلَمُهُ، وَإِلَّا كَانَ مِنَ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْهُدَى وَالْبَيِّنَاتِ، وَلَا يَنْفَعُهُ عِلْمُهُ، وَلَا يُنْجِيهِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ.

● **الرَّابِعَةُ** : أَنْ يُجَاهِدَهَا عَلَى الصَّبْرِ عَلَى مَشَاقِّ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ وَأَذَى الْخَلْقِ، وَيَتَحَمَّلُ ذَلِكَ كُلَّهُ لِلَّهِ .

فَإِذَا اسْتَكْمَلَ هَذِهِ الْمَرَاتِبَ الْأَرْبَعَ صَارَ مِنَ الرَّبَّانِيِّينَ ؛ فَإِنَّ السَّلَفَ مُجْمِعُونَ عَلَى أَنَّ الْعَالِمَ لَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُسَمَّى رَبَّانِيًّا حَتَّى يَعْرِفَ الْحَقَّ وَيَعْمَلَ بِهِ وَيُعَلِّمَهُ ؛ فَمَنْ عَلِمَ وَعَمِلَ وَعَلَّمَ فَذَاكَ يُدْعَى عَظِيمًا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ " . انتهى .

❶ أولاً :

أَنْ يُجَاهِدَهَا عَلَى تَعَلُّمِ الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ الَّذِي لَا فَلَاحَ لَهَا وَلَا سَعَادَةَ فِي مَعَاشِهَا وَمَعَادِهَا إِلَّا بِهِ، وَمَتَى فَاتَهَا عِلْمُهُ شَقِيَتْ فِي الدَّارَيْنِ.

([1]) (" زاد المعاد " ٩/٣) .

أول طريقٍ لجهاد النفس : (**العِلْمُ**) ؛ فيجاهدُ العبدُ نفْسَهُ عَلَى حضور حلَقَات العلمِ ، ويوفر لذلك وقتا رغم مسؤلياتهِ وأشغالهِ ؛ ليتعلَّمَ ، ثم الصبرُ على مذاكرتِهِ ؛ لأنَّهُ من الصعب الاستقامةُ على الطريق بدون علم ؛ فالعلم هو النور الذي ينير الطريق ، ويعرفك معالمِهُ وآفاتهِ ، والعقبات والعثرات التي فيه ؛ فكيف تعرف كلَّ ذلك إلا بالعلم ؛ فكيف تعلمُ البدعة من السنة؟ والحلال من الحرام ؟ والناسخ من المنسوخ ؟ والمتشابه من المحكم ؟ إلا بِهِ ؛ فلا فلاح للإنسان إلا بهذا العلم .

2 وثانيًا :

أَنْ يُجَاهِدَهَا عَلَى الْعَمَلِ بِهِ بَعْدَ عِلْمِهِ، وَإِلَّا فَمُجَرَّدُ الْعِلْمِ بِلَا عَمَلٍ إِنْ لَمْ يَضُرَّهَا لَمْ يَنْفَعْهَا.

فجهاد النفس بعد تحصيل العلم أن يعمل به ما استطاع ؛ قال – تعالى – : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن:١٦] ؛ فإذا تعلَّمْتَ علمًا ؛ فاعملْ بِهِ ؛ قال – تعالى – : ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [الزمر١٧: ١٨] ؛ فالإنسان الذي يتّبعُ أحسنُ ما قيل له، له البُشْرَى من الله بكل خير .

3 وثالثًا :

أَنْ يُجَاهِدَهَا عَلَى الدَّعْوَةِ إِلَيْهِ، وَتَعْلِيمِهِ مَنْ لَا يَعْلَمُهُ، وَإِلَّا كَانَ مِنَ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْهُدَى وَالْبَيِّنَاتِ، وَلَا يَنْفَعُهُ عِلْمُهُ، وَلَا يُنْجِيهِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ.

وكما ذكَرْنَا ؛ فالدعوة تحتاج إلى جهادٍ وصبرٍ واحتسابٍ لتعليم هذا العلم لمن لا يعلمه ؛ فإن تعلمت فِقْهَ الطهارة مثلا أو الصلاة أو الجنائز والصيام والزكاة والحج والعمرة وغير ذلك؛ فيمكنُ

أن يعيش، فلماذا لا تُعلِّم الناس ما تعلَّمْتَه ؟ لماذا تترك المسلمين بدون تعلميهم كيفية الاغتسال وكيفية التطهُّر ؛ حتى وإن لم تكن داعيةً ؛ فعلِّم من حولك الطهارة والصلاة ، أو مبطلات الصيام ، ونحو ذلك ؛ فعَلِّم ما دَرَسْتَ ومعك الكتب ؛ حتى تتكلَّمَ بعلمٍ ؛ لأن الذاكرة من الممكن أن تضعُفَ ؛ فتنقل خطأً ؛ فمن الكتاب الذي أمامك علِّم الناسَ ؛ فقدِّم شيئًا لهذا الدينِ ، ولا تتكاسل ؛ فعلِّم ما تعلمتَهُ ، ولو لفردٍ واحدٍ ؛ قال رسولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « **فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا، خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ** » [(١)] ؛ فلو اهتدى على يديك رجلٌ واحدٌ (فقط) ؛ كـ : جارك ، أو صديقك ، أو أيِّ مسلمٍ ربطتك به صلة أو مكان واحد؛ فذلك خيرٌ لك من الدنيا وما فيها .. وهكذا ؛ فإذا تعلَّمْنَا عِلْمًا نجاهد على تعليمه لمن لا يعلمه ، ولا نقولُ نحن في بداية الطريق ؛ بل كما قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « **بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً** » [(٢)] ؛ فبلِّغ ولو آيةً – ما دمتَ عالمًا بما تقولُ – ، ولا يُطلب منك تبليغُ ما لم تعرفه ، ولكن بلِّغْ ما تعلَّمْتَهُ ، ما دمتَ على ثقةٍ أنك تنقلُ علمًا صحيحًا .

٤ورابعًا :

أَنْ يُجَاهِدَهَا عَلَى الصَّبْرِ عَلَى مَشَاقِّ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ وَأَذَى الْخَلْقِ، وَيَتَحَمَّلُ ذَلِكَ كُلَّهُ لِلَّهِ .

فسوف يجِدُ أذىً – ولابُدَّ – ويجدُ مشقةً ، ولا يسلك أحدٌ طريق الدعوة ، إلا ووجد من هذا الأذى والعناء، كما تقدَّم.

❑ قَالَ المُصنِّفُ :

(قال الإمَامُ الشَّافِعِيُّ – رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى – : " لو مَا أَنْزَلَ اللهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ إلاَّ هَذِهِ

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٣٧٠١ – ٤٢١٠) ، ومسلمٌ (٢٤٠٦) .

(٢) أخرجه البخاريُّ (٣٤٦١) .

السُّورَةَ لَكَفَتْهُمْ ") .

📖 يريدُ أن يقولَ : لو لم يُقِم اللهُ الحجَّة على خلقه ؛ إلا بهذه السورة لكفى ؛ لأن الله سبحانه وتعالى أخبر أنَّ كل البشر في خسارةٍ ، إلا أصحابَ هذه الصفات الأربعِ : (**الإيمان ، والعمل الصالح ، والتواصي بالحق ، والتواصي بالصبر**) ؛ فهي حجةٌ لله – سبحانه وتعالى – على عباده.

❑ **قال المُصَنِّفُ : (وقال البُخَارِيُّ** – رحمه الله تعالى – : بَاب : العِلْمُ قَبْلَ القَوْلِ وَالْعَمَلِ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ اله إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ ﴾ [مُحَمَّد:١٩] ؛ فَبَدَأَ بِالْعِلْمِ قَبْلَ القَوْلِ وَالعَمَلِ) .

📖 والإمام البخاريُّ هو : أبو عبد الله محمَّد بن إسماعيلَ بنِ إبراهيم بنِ المغيرةِ البُخَاريُّ – رحمه الله تعالى – ؛ قال في " **صحيحه** " : (بابٌ : العلمُ قبل القول والعمل) ، واستدل لهذه الترجمة بقوله – تعالى– : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ ﴾ .

أراد أن يُبيِّن أهمية العلم ؛ مستدلاً لقولهِ بآياتِ الكتاب ؛ فالعلماءُ هم ورثةُ الأنبياءِ الذين ورَّثوا العلمَ ، ومن أخذَهُ أخذَ بحظٍ وافرٍ ، ومن سلكَ طريقًا يطلبُ به علمًا سهَّلَ اللهُ لهُ طريقًا إلى الجنة ، كذا ذكر في هذا الباب [(١)].

قال ابنُ المُنِير – رحمه الله تعالى – مُعَقِّبًا على قَوْلِ البُخَارِيِّ – : " أراد به : أن العلمَ شرطٌ في صحة القولِ والعملِ ؛ فلا يعتبران إلا به ؛ فهو متقدمٌ عليهما ؛ لأنه مصححٌ للنيةِ المصححة للعمل ؛ فنبَّهَ المصنفُ على ذلك ؛ حتى لا يسبق إلى الذهن من قولهم : إن العلم لا ينفع إلا بالعمل ، تهوين أمرِ العملِ ، والتساهل في طلبه" [(٢)]. انتهى.

---

(١) انظر : " الفتح " (١/١٩٢) .

(٢) المصدر السابق .

وقد سبق بيان أهمية العلم ؛ إذ به تنكشفُ لك الشهوات والشبهات ، وبه تعرف الشرع والمشرّع – ﷻ ، وتقدست أسماؤه – .

❑ قَالَ المصنّفُ : (اعْلَمْ رَحِمَكَ اللهُ أَنَّه يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ، تَعَلُّمُ هَذِهِ الثَّلاثِ مَسَائِل، والْعَمَلُ بِهِنَّ :

الأُولَى : أَنَّ اللهَ خَلَقَنَا ، وَرَزَقَنَا ، وَلَمْ يَتْرُكْنَا هَمَلا ؛ بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولاً ؛ فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ – تَعَالَى – : (إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً * فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً) [المزمل: ١٥، ١٦] .

الثَّانِيَةُ : أَنَّ الله لا يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ أَحَدُ فِي عِبَادَتِهِ ، لا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ ، وَلا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً) [الجن: ١٨].

الثَّالِثَةُ : أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ ، وَوَحَّدَ اللهَ لا يَجُوزُ لَهُ مُوَالاةُ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ ، وَلَوْ كَانَ أَقْرَبَ قَرِيبٍ ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ – تَعَالَى – : (لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)[المجادلة: ٢٢].

📖 فبعد أن ذكر الشيخُ – رحمه الله – أربع مسائل ذكر– هنا – ثلاث مسائلَ .

● (الأُولَى : أَنَّ اللهَ خَلَقَنَا) :

إيمانٌ بأن العبد مخلوق ، وكلُّ ما في الكون دون الله مخلوقٌ ، وأدلة السمع والعقل والفطرة وكل شيء في الكون يدلُّ على أن الله هو الخالقُ – وحدهُ – .

أمَّا الأدلة السمعيةُ ؛ فهي كثيرةٌ :

–قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ﴾ [الأعراف:١١].

–وقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ (٢٧) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر:٢٦–٢٩].

–وقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم:٢٠].

وقوله : ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ (١٥) فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:١٤–١٦].

وقوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات:٩٦] .

والآيات في ذلك كثيرة (جدًّا) في القرآنِ ، وكلُّها تدل على أن الله خلَقَنا .

وهذا ردٌّ على الذين كانوا يشككون في أمر البعث ، وفي هذه الأيام انتشر دَجَلُ الملْحِدِين – الذين ينكُرون وجود الله تعالى – في الإعلام ، وهم ليسوا بالكثير ، ولكن الذي أذاع سيطهم ، هو الإعلام !!

ومن قديم الزمان، وهناك أناسٌ تُنْكِرُ البعثَ ؛ كبعض ! كفار قريش ، وغيرِهِم من الأمم التي سبقتهم ، ويوجد من ينكرون وجود الله ؛ فليس شيئًا جديدًا ؛ لكن لماذا يريد الإعلام تضخيم المسألةِ ؟!! لماذا يظهره الإعلام على الشاشاتِ ؟ هل هذا حلٌّ إيجابيٌّ ؟!!

كلاَّ ؛ بل الحلُّ الإيجابيُّ أن تأخذَهُ إلى أهل العلم ؛ لكي يعلِّمُوه ، ويقيموا عليه الحجة ، وإلا ي

ُقام عليه شرع اللهِ ؛ فليس الحلُّ أن يخرج في الإعلام ؛ ليلْقِيَ الشبهاتِ على الجمهور ؛ فهناك شبابٌ صغيرٌ ، أو حتى من الكبارِ في السِّنِّ ، لكن لم يدرسوا أو يتعلَّمُوا دينهم ، وإيمانُهم ضعيفٌ ؛ فيُلْقِي هذا (الكائنُ !!) عليهم شبهاتٍ ، ويتركهم – واللهُ عليمٌ بما تصنع هذه الشبهات في قلوبهم – ؛ فهذا من السَّفَهِ ، وضعفِ الإيمانِ في القلوبِ . وكلَّما بَعُد العبدُ عن الله ؛ كلما جانبه التوفيق ؛ فالحكمة من عنده تعالى ؛ قال – تعالى – : ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾ [البقرة:٢٦٩] ؛ فليس عندهم حكمَةٌ حين يُظهرون هذا الملحد على على شاشات الفضائياتِ ؟!

وإن كانَ كثيرٌ من هؤلاء كلُّ ما يهمُّهم إفسادُ الناس ، وإفساد عقولهم .

○ الله – عزَّ وجلَّ – فَطَرَنَا عَلَى التَّوحيد :

وهؤلاء الملحدون لو تدبَّروا أو تأمَّلُوا القرآن ؛ لرجعوا عن غيِّهم وإفْكِهم ، ولكنهم لم يقرءوا القرآن قراءةَ المتأملِ الذي يبتغي هدايةً أو رشادًا ؛ بل إن كثيرًا منهم لا يحسنُ حتى الوضوء ، ولم يصلِّ لله ركعةً ؛ فنتيجةٌ طبيعيةٌ لأيِّ إنسانٍ بعيدٍ عن دين الله ، تاركٍ للصلاة والصيام ، ولا يذكر الله – تعالى – أن يستزلَّهُ الشيطان ، ويفْسِدَ عليه عقلَهُ وقلبَهُ وفطرتَهُ التي فطرَهُ الله عليها ؛ فالله عزَّ وجلَّ فَطَرَنَا على التوحيد ؛ على قول : (لا إله إلا الله) ، ولكن الشيطانَ قد يفسدُ هذه الفطرةَ ؛ لبُعْدِ العبد عن ربه ؛ فلا صلاة ولا صيام ولا ذكر ؛ فأين الاتصالُ بينه وبين الله ؟! .

إنَّ الله – عزَّ وجلَّ – غنيٌّ عن عبادتي وعبادتك وعن عبادة العالمين ، ولكنه أراد العبادة لحكمة ، وهو سبحانه يحبُّ الطاعة من العبد ، ويكره المعصية ، وخلق الخلق من أجل عبادته وحده ؛ قال – تعالى – : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦] ؛ فالعبادة فيها تحقيقُ العبودية للربِّ ، ونفعُ العبد.

فحينما شرع العبادة لعبادِهِ يعلم أنَّهُ لا يستقيمُ إيمانُ عبدٍ بغيرِ عبادة ؛ فإذا بعُد العبد عن ربهِ ،

وترك الصلاة وغيرها من العبادات التي تجعله على صلَةٍ به ؛ يستحوذُ عليه الشيطانُ ، ويبدأُ التحكُّم في عقلِهِ ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [المجادلة:١٩] .

○ الأدلةُ العقليَّةُ على أنَّ اللهَ خَلَقَنَا :

قال – تعالى – : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ ﴾ [الطور:٣٥-٣٦] ؛ فالذي يقولُ : الربَّ غير موجودٌ !! فمِنْ أيْنَ أَتَى هُو هذا المسكينُ ؟! فلو اجتمعَتْ قُوَى الأرضِ جميعُهَا ؛ كي يخلُقوا نملةً فيها روحٌ ما استطاعوا، مع كل ما أُوتي هؤلاء من عِلْمٍ وتحضُّرٍ ؛ فوصلوا إلى الفضاء ، وعِلْمِ الذَّرَّة ، واخترعوا الهواتفَ، والشبكاتِ العنكبوتية ؛ فتتكلَّم من هنا ، ويسمعُكَ مَنْ في أمريكا ؛ فبالرغم من كلِّ هذا التقدُّم العلْمِي الذي بهَر العقولَ ، إلا أنه لم يستطعِ الكونُ –كلُّه – على خَلْقِ نملةٍ فيها روح ؛ قال – تعالى – : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء:٨٥] ؛ فنريد أحدًا يخلُق نملةً بها روحٌ ، ولا نقولُ : يخلق إنسانًا ؛ فأين العقول ؟! قال – تعالى – : ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ [النور:٤٠].

فلو انطمس العقلُ وغضبَ الربُّ على العبد ما استطاع فَهْمَ ما نقولُهُ ، ولا الوصول إلى البراهينِ؛ فالأدلَّة أمامَهُ ، ولكنه لا ينتفع بها !! وهذه عقوبةٌ من الله ؛ فالذي ألحَدَ لا يتصوَّرُ أنَّ ربُّهُ هو من أعرض عنه ، وتركّهُ لشيطانهِ ونفسهِ ولدنياه ، ولو عصمَهُ وحفظَهُ ؛ لكان حَفِظَ عقلهُ وفكْرِهُ ، وما أعرض هذا الإعراض ، ولا فكَّر في هذا السَّفَهِ والخَبَلِ ، وعليه أن يعلم أن ما بهِ من عقوبةٍ وإعراضٍ من الله ؛ لتركه لدينه ، وتخليه عنه ، وإلاَّ ؛ فالآياتُ واضحاتٌ وبيناتٌ لكلِّ ذي عقْلٍ .

❑ كَيْفَ نَرُدُّ عَلَى مُلْحِدٍ ؟

لو قلتَ لأيِّ إنسانٍ – الآن – : إنَّ هذا المبنى – مثلاً – كان بالأمس أرضًا فضاءً، وأتينا اليوم؛ فوجدناه على هذا المنظر بُني أربعة أدوار ، وهنا دورة المياه ، وهنا الإدارة ، وهنا المكيفات ؛ لَقَالَ لنا : هل أصابكم جنونٌ ؟ فهذه أول كلمة تُقال لنا ! فنسأله : لماذا تقولُ : أصابنا جنونٌ ؟!! سيقول : كيف كان بالأمس أرضًا فضاء ، ثم بُني بدون أن يَبْنِيَهُ أحدٌ ؟!

فينبغي الردُّ على الملحد بمثل هذه الأمثلة اليسيرةِ ؛ فأقلُّ هذه الأدلة لا يستطيع إدراكها بعقلهِ .

أرأيتَ عقوبةَ الله له وصلت إلى أي حد ؟! فإذا قُلنا له : هل تقبل أن يُقَالَ لك : إنَّ هذا المعهد وُجِدَ بدون أن يَبْنِيَهُ أحدٌ ؛ لا مهندس ولا عامل ، ولكن وُجِدَ هكذا تلقائيا !! لن يقبل ذلك– ولا يقبل ذلك عاقل– ؛ فنردُّ عليه ، ونقول : فكيف تقبلُ بهذا الكون كلهِ بما فيه من بحارٍ وجبالٍ وأنهارٍ وسماءٍ وزرعٍ وأشجارٍ وطيرٍ – وغير ذلك – أن يكون بغير خالقٍ ؟!!

والآيات كثيرة في القرآن ؛ سواء عقلية أو سمعية أو آيات الفطرة ؛ كلها تدلُّ على أن الخالق هو اللهُ سبحانه وتعالى .

❑ قَالَ المصَنِّفُ : (.. الأُولَى : أَنَّ اللهَ خَلَقَنَا ، وَرَزَقَنَا) .

○ الأدلَّةُ من الكتاب على أنَّ الله رزقنا – كثيرةٌ جدًّا – ، نذكُرُ مِنْهَا :

قوله – تعالى – : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٨] .

وقوله : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ:٢٤] .

وقوله : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ (٣١) ﴾ [يونس :٣١].

إقرارُ مشركي العَرَبِ بوجود اللهِ :

فكما ذكرنا أنَّ مشركي العرب كانوا يقرُّون بوجود الله ؛ قال – تعالى – : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [لقمان:٢٥] ؛ فأيُّ إنسانٍ ذي عقلٍ يعلم أنَّ للكون خالقًا ، ولكنهم مع إقرارهم وقَعُوا في الشرك ؛ فهم يعلمون أن خالقهم وخالق السموات والأرض هو : (الله) ؛ قال – تعالى – : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف:٨٧] ، وقال : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر:٣٨] ؛ فهذا اعترافٌ منهم بذلك – كما ذكرنا هذا الكلام مرارًا ؛ فهم على يقينٍ أنَّ الله مالكُ كلِّ شيءٍ ، وهو يحيي ويميت ، وهو الرزاقُ ، ولكنْ إشراكُهُم كان بسبب عبادتهم الأصنام ، قالوا : ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر:٣] ؛ فكانوا يعبدونهم ؛ لتقربهم من الله ، ولكن ما أحدٌ منهم أنكر وجود الله ؛ لأنَّ هذا الإنكار لا يقبلُهُ عاقلٌ ، ولا حتى طفلٌ صغيرٌ ؛ فهذا الملحدُ لم يكن حتَّى مثلَ المشركين الذين كانوا يسجدون للأصنام .

○ الدليلُ العَقْلِيُّ على أنَّ اللهَ رَزَقَنَا :

قوله – تعالى – : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاء الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاء جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة :٦٣-٧٠].

❑ قَالَ المُصَنِّفُ : (وَلَمْ يَتْرُكْنَا هَمَلا) .

📖 الله – عزَّ وجلَّ – خلَقَنَا ورَزَقَنَا ، وأَتَى بِنَا إلى الدُّنيا ؛ لحكمةٍ ؛ فالأمر ليس سدىً ؛ فهو حكيمٌ عليمٌ قدر حسابًا ، وعقابًا ، وجنةً ، ونارًا ، تترتب على أعمال العباد ؛ فالمسألة ليست هملاً ؛ قال – تعالى– : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون:١١٥-١١٦] ؛ أي : أنَّهُ تَعَالَى وتنزَّهَ عن هذا السَّفَهِ ، وعن الأشياء التي ليست فيها حكمةٌ .

هل تعتقدُ أنَّ الله – تعالى – خلقَ الإنسانَ ، وأنزله إلى الأرض ، ثم بعد ذلك يساوي بين من يصلِّي ومن لا يصلِّي ، أو بين الأمينِ والسَّارقِ ، وتتَساوى الأمورُ يوم القيامةِ ، ويذهبُ الجميعُ إلى الجنَّة !! هل هذا يقبلُهُ عاقلٌ ؟!! كلاَّ ؛ لذا ؛ قال : ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾ ، وقال: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية:٢١] ، وقال : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [القلم:٣٥-٣٦].

❍ من خصائصِ المَلِكِ : الأمرُ والنَّهْيُ :

فالله – تَعَالَى – يأمُرُ ويَنْهَى ، ولابُدَّ أن يُطاع ؛ لكونِهِ مَلِكًا ؛ فمن أخصِّ خصائصهِ : الأمرُ والنهيُ ؛ فإذا أمَرَ ؛ فلابُدَّ أن تأتمر بأمره ، وإذا نهى ؛ فلابُدَّ أن تنتهي عما نهى عنه ، وهو الحقُّ وما دون أوامرِهِ باطلٌ ؛ فالأمر يُرجعُ إليه ؛ قال – تعالى – : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف:٥٤]، وقد رتَّبَ سبحانه الجزاء على الأعمال ؛ سواء بالجنة أو النار ؛ في أكثر من ألف موضع في القرآن ، فيذكر أن العمل الصالح له أجر ، وكذلك العمل الفاسد عليه وزرٌ ، والصالحون لهم

أجرهم ؛ قال – تعالى – : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧] ، والضَّالُّون لهم عقوبُتُهم ؛ قَالَ – تَعَالَى – : ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا ﴾ [النساء :١٢٣] ؛ فهذا مذكورٌ من أولِ القُرْآنِ إلى آخرِهِ ، وكُلُّ هذه الآيات تدلُّ على أنَّ الإنسان لم يُخْلَق عبثًا ، ولن يُتْرَك هملاً .

قَالَ المصَنِّفُ : (بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولاً ؛ فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ) .

لكي يُتِمَّ الله – تعالى – نعمتَهُ علينا ؛ أرسل رسولاً إلينا ؛ ليُعلِّمنا ديننا ، ولم يكتفِ سبحانه وتعالى بفطرة الإنسان التي فطره عليها ؛ لأنه فطرنا على التوحيد ؛ قال – تعالى – : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعرف:١٧٢].

وقول رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ ؛ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ » (٢).

الفطرةُ في الحَدِيْثِ :

اختلف فيها العلماءُ على عدَّة أقوالٍ ، والرَّاجحُ أنَّ قولَهُ : " عَلَى الفِطْرَةِ " ؛ أي : على التوحيدِ .

فمن رحمة الله وفضله ومنَّتِهِ على عباده أنه أرسل لكلِّ أمةٍ رسولاً ؛ قال – تعالى – : ﴿ وَلَقَدْ

(٢) أخرجه البخاريُّ (٤٧٧٥) ، ومسلمٌ (٢٦٥٨).

بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [النحل:٣٦] ، ثم يموتُ الرسول ، ويأتي الشيطان يسترلهم ؛ فيبعثُ الله رسولاً آخرَ إلى أنَّ أرسل اللهُ نبيَهُ محمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاتمَ الأنبياء والرسل.

وقد أمر الله بطاعتِهِ في القرآنِ في عدَّةِ مواضعَ :

قال الإمام أحمد – رحمه الله – : " نَظَرْتُ فِي الْمُصْحَفِ ؛ فَوَجَدْتُ فِيهِ طَاعَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ثَلَاثَةٍ وَثَلَاثِينَ مَوْضِعًا ، ثُمَّ جَعَلَ يَتْلُو : ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣] ، وَجَعَلَ يُكَرِّرُهَا ، وَيَقُولُ : وَمَا الْفِتْنَةُ الشِّرْكُ، لَعَلَّهُ أَنْ يَقَعَ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنَ الزَّيْغِ فَيَزِيغَ فَيُهْلِكَهُ ، وَجَعَلَ يَتْلُو هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥] " (١) .

وقال الآجريُّ – رحمه الله – بعد أن ذكر جملة من الآيات التي تدل على وجوب طاعة النبي – : " ثم فرض على الخلقِ طاعتَهُ في نَيْفٍ وثلاثين موضعًا من كتابه – تعالى – " (١).

وأنت تقرأ القرآن تجد طاعة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أكثر من موضع، يحثنا فيهم سبحانه على ذلك –كما سبق بيانه آنفًا– ؛ فلا يجوز للعبد ، ولا يحق له أن يتفلت من طاعته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فمستحيل يستقيم الإيمان ، أو الدين بغير طاعته .

❍ معنى السنة عند أهلِ العقيدة :

معناها : الاتباعُ المطلَقُ ؛ أي : كلُّ ما أمَرَ به نأتمرُ به ، وكلُّ ما نَهى عنه نتركُهُ ؛ فهذِهِ هي

---

(١) (" **الإبانة** " لابن بطة رقم : ٩٧) .

(١) انظر : " **الشريعة** " (ص:٤٢) .

السُّنَّةُ عند أهل العقيدة .

وعُلَمَاءُ العقيدةِ قد صنَّفُوا كتبًا في العقيدَةِ ، وسمَّوها : السُّنَّةَ ؛ فالإمامُ البربهاريُّ له كتابٌ سمَّاه : " **شرح السنة** "، وابنُ أبي زمنين سمَّى كتابه " **أصول السنة** " ، والإمامُ أحمدُ صنَّف كتابًا سمَّاه : " **أصول السنة** " ، وابنُهُ عبدُ الله صنَّف كتابًا ، وسمَّاه " **السنَّة** " – كذلك – ؛ فالسُّنَّةُ عند أهل العقيدة هي : الدِّيْنُ كلُّه .

والسُّنَّة عند الفُقَهاءِ :

منقسمَةٌ إلى واجبٍ ومستحبٍّ ؛ فالواجبُ مثل : إطلاق اللحية، والمستحبُّ مثل : لعق الأصابع ، وصيام الاثنين والخميس ، وقيام الليل ، وصلاة أربع ركعات قبل الظهر واثنين بعده ؛ فهم يُفَصِّلُون بين ما فرضه الله ورسوله ، وبين السُّنَّة المستحبةِ التي إذا فعلتَها لك أجرٌ ، وإذا تركتها ؛ فليس عليك وزرٌ.

وأما عند علماء العقيدة ليس عندهم هذا التفصيل ؛ لذلك لا نجد في كتاب عقيدةٍ سُنَّةً واجبةً، أو سُنَّةً مستحبةً ؛ لأنَّ اتباعَ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (عندهم) اتباعٌ مطلقٌ في الواجب والمستحب ؛ فالواجِبُ لك أجرٌ فيه إن فعلته ، وإن تركته عليك وزر ، والمستحب لك أجر إن فعلته تركته ؛ فلست آثمًا ، ولكن ابتعدت بذلك عن الكمال في الاتباع.

❐ **قال المصَنِّفُ** : (**والدليلُ** : **قولُهُ – تعالى** – : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً (١٥) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً ﴾ **[المزمل : ١٥–١٦]**) .

📖 يبيِّن الله – عزَّ وجلَّ – ويقرِّرُ في القرآن أنه أرسل لنا النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شهيدًا علينا ؛ كما أرسلَ إلى فرعون رسولاً.

ما يدلُّ على عصمة النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

وطاعةُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في آياتٍ -كثيرة - جدًّا - ، منها ؛ قولهُ - تعالى - : ﴿ مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ [النساء:٨٠] ، وهذه الآية تبينُ أنَّ العصمةَ ثابتةٌ للنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ لأنَّ اللهَ - عزَّ وجلَّ - جعل طاعة النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ كطاعته .

ومن هنا قال العلماء بوجوب العصمة للنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ كما ذكر ذلك الإمام السعديُّ - رحمه الله - وغيره من العلماء.

وقال - تعالى - : ﴿ وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَاحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ ﴾ [المائدة:٩٢] ؛ فتكرار الفعل دليلٌ على استقلالِ الأمْرِ ؛ فإذا جاءَ الأمْرُ من النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ولم يأتِ في القرآن ؛ فكأنَّهُ جاء فيه ؛ فالقرآن وحيٌ ، والسنة وحيٌ، وكلٌّ من عند الله .

عِظَمُ الجزاءِ لمن أطاعَ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واتبَعَهُ :

قال - تعالى - : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [النور:٥٢]، وقوله : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء:٦٩] ؛ فانْظُر إلى عظم الجزاء؛ فالذي يطيع الله ورسوله ، ويحسن الاتباع ؛ فهو : ﴿ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ ﴾ ، وكلٌّ بحسب عملِهِ وطاعتهِ ، وحسب تمسكهِ بالسنة ؛ فكلَّما كان التمسك أقوى ، وعمل العبدُ بالسُّنَّة = اقتربَ من هذه الدرجات التي ذُكرت في الآية ؛ فالجنة درجاتٌ ؛ فالذي يريد منزلة عالية ؛ فعليه الحرصُ على تعلُّم السنة ، والعملِ بها ، والدعوةِ إليها ؛ فإذا تعلَّمتَ سُنَّةً ؛ فاعمَلْ بِهَا ، وأَعْلِمْهَا لمن لا يَعْلَمُهَا ، وبهذا تَكُونُ أَقْرَبَ مجْلِسًا مِنَ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وتأمل قولَهُ – تعالى – : ﴿ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب:٧١] ؛ فقد رَتَّبَ الفَوْزَ العظيمَ عَلَى طاعةِ النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وأعظمُ جزاءٍ تنالُهُ مِنِ اتباعِ النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو حُبُّ اللهِ لك ، ويا لها من منزلة ؛ فقد قال بعضُ السَّلَفِ : " ليس الشأنُ أن تُحِبَّ ، ولكن الشأن أن تُحَبَّ ".

قال – تعالى –: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣١].

طاعةُ النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المُطْلَقَةِ من علاماتِ كَمال الإيمان:

قال – تعالى – : ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥] ؛ فنَفَى كمال الإيمان ، وليس الإيمان بالكلية ؛ فالإيمان الكامل هو الذي ليس فيه شوائب من شرك ، ولا هوىً ، وهو يدفع الإنسانَ لطاعةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مطلقًا ؛ فلا يسأل كثيرًا ؛ فإن تأكَّدَ أن الحديثَ سندُهُ صحيحٌ ، عمِل به ، أو تأكد أنَّ الأمر جاء من عند الله في آيةٍ قرآنيةٍ عمِل بهِ ؛ فهذا الذي كمُل إيمانه ؛ فكمال الإيمان هو : الإذعان الكامل لأمْرِ النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ دون أن يزن العبدُ المسألةَ عَلَى عقلِهِ ؛ فإن قبلها عقلُهُ قبِلها ، وإن لم يقبلها رفضها !! فهذا ليس من صنيعِ أصحابِ الإيمانِ .

❑ **قال المصنِّفُ : (الثَّانِيَةُ : أَنَّ اللهَ لا يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ أَحَدُ فِي عِبَادَتِهِ ، لا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ ، وَلا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً) [الجن: ١٨]) .**

📖 بعد الإقرار بوجودِ اللهِ ، وأنَّهُ هو الرزَّاقُ ، والخَالِقُ ؛ فإذا أيْقَنت ذلك ؛ فلا يمكِنُ أن

تُشْرِكَ في عبادة الله شيئًا.

والشِّرْكُ في العِبَادَةِ :

هو كَمَنْ يطوفُ حولَ القُبُورِ ، ويَتَمَسَّحُ بها ، ويَسْأَلُ المقبورَ النَّجاةَ ، أو الرزق ، أو رفعَ الضُّرِّ عنه ، أو كشْفَ الغَمِّ ؛ فهذا شركٌ أكبرُ يخرج صاحبه من الملة ، وهو لا يشعر ؛ فهؤلاء الناس يشركون في عبادة الله غيره ، وهذا لا يجوز ؛ قال – تعالى –: ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن:١٨] ؛ فلا تنفعُ العبادةُ إذا كان فيها شركٌ بالله ؛ سواءٌ كان شركًا أكبرًا أو أصغرًا . قال الله – تبارك وتعالى – : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر:٦٠].

قال ابنُ كثير – رحمه الله – ([1]):

" هَذَا مِنْ فَضْلِهِ، تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَكَرَمِهِ أَنَّهُ نَدَبَ عِبَادَهُ إِلَى دُعَائِهِ، وَتَكَفَّلَ لَهُمْ بِالْإِجَابَةِ ؛ كَمَا كَانَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ يَقُولُ : يَا مَنْ أحبُّ عِبَادِهِ إِلَيْهِ مَنْ سَأَلَهُ فَأَكْثَرَ سُؤَالَهُ ، وَيَا مَنْ أَبْغَضُ عِبَادِهِ إِلَيْهِ مَنْ لَمْ يَسْأَلْهُ ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ غَيْرُكَ يَا رَبِّ.

وَفِي هَذَا الْمَعْنَى يَقُولُ الشَّاعِرُ :

اللهُ يَغْضبُ إِنْ تركْتَ سُؤَالهُ ... وَبُنِيُّ آدمَ حِينَ يُسألُ يَغْضَبُ ...

وعن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « **إِنَّ الدُّعَاءَ هُوَ الْعِبَادَةُ** » [(١)] ، ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠] " ؛ أي : صاغرين حقيْرِيْنَ .

ومِنْ أهل العلم من قال : إنَّ الدعاء في الآية ، يعني : فعْلَ الطَّاعَاتِ ، وبها يستجيبُ اللهُ – تَعَالَى – من العبدِ الدُّعاءَ إذا دعَاهُ .

([1]) (" **تفسير ابن كثير** " ١٥٣/٧) .

(١) أخرجه الترمذيُّ (٣٧٤/٥) ، وأحمد (٢٧١/٤) ، وغيرهما . وهو في " صحيح سنن أبي داود " (٣٥٩) .

قال الطبريُّ – رحمه الله – : " يقول تعالى ذكْرُهُ : ويقول ربكم : أيها الناسُ ﴿ادْعُونِي﴾ : يقول : اعبدوني ، وأخلصوا لي العبادة دون من تعبدون من دوني من الأوثان والأصنام وغير ذلك ﴿ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ ، يقول : أُجِبْ دعاءكم ، فأعفو عنكم وأرحمكم "[٣].

○ الشركُ الأصغرُ :

هو أنْ أَعْمَلَ عملاً فيه رياءٌ ، أو سمعةٌ ، أو أُريدُ به أجرًا من أحدٍ ، أو مدحًا ؛ فهذا إشراكٌ في العمل ؛ قال – تعالى – : ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠)﴾ [الكهف:١١٠] ، وقولهُ : (أَحَدًا) نكرةٌ جاءت في سياق النفي ؛ لتعُمَّ أيَّ شيءٍ ؛ فلا حجر ، ولا شجر ، ولا نبي ، ولا ملك ؛ فلا يصحُّ أن تعبد مع الله شيئًا ، أيًّا كان هذا المعبود .

فهذا نفي الشرك – الأكبر والأصغر– ، ونفي العبادة عن غير الله ؛ فيجب أن أعبد الله وحده الواحد الأحد ، وأبتغي وجهَهُ بالعمل وأسألُهُ أن يتقبَّلَ عملي ، وأن أعبدَهُ على بصيرةٍ .

والإشراك بالنفسِ هُو العُجْبُ :

وهو : أنَّ العبد يعمل عملاً ، ولكنه يعجبُ بنفسه ؛ فيجتهد في الطاعةِ ، ويسبق من حوله ، ثم يجِدُ في نفسه أنَّهُ أعلى من غيرهِ كعبًا ، أو سَبَقَ من معه ، وهو لا يتكلَّم ، ولكن بداخلهِ يشعر بذلك ؛ فيصبح عنده إشراكٌ بالنفس ؛ فهذا الشخصُ لم يحقق منزلة : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) .

فـ : (**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**) : فيها نفيُ الإشراك بالله ، ونفي العبودية لغيرهِ .

---

(٣) " **جامع البيان** " – للطبريّ – (٩٨/١٢).

(**وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**) : فيها نفي الإشراك بالنفس ، والاستعانة بالله سبحانَهُ وَتَعَالَى في القيام بالأعمال والقُرَب والطاعات.

فهو لم يحقق منزلة : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) ؛ فلو حقَّقَ (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) ما عَبَدَ مع الله أحدًا ، ولحقَّقَ الإخلاصَ .

وتحقيقُ (إِيَّاكَ نَسْتَعِيْنُ) تَدْفَعُ العُجْبُ :

ولو حقَّقَ (إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) ؛ لترك العُجْبَ بالنَّفْسِ ، ورَأَى نَفْسَهُ ضَعِيْفَةً حقيرةً صغيرةً ، لا تستطيع فعْلَ شيءٍ ، إلا بعون الله ، وإن لم يُمِدَّهُ ويعِنْهُ ويكرِمْهُ ، ويُبَصِّرَهُ ويوَفِّقَهُ ما استطاع أن يتكلَّم كلمةً ؛ فضلاً عن أن يعمل عملاً ، فضلاً عن أن يستقيم في العمل ، ولكِنْ عدمُ الفَهْمِ ، وضَعْفُ العلمِ تَجْعَلُ العَبْدَ يَفْرَحُ بنفسِهِ ؛ فلِمَ الفرح ؟!

والله لا نستطيعُ عملَ شيءٍ ، إلا بحول الله ، وتوفيقه ، وكرمِهِ ، وإحسانهِ ، وعفوِهِ . ولو حاسبَنَا على ذنوبنا ، ومعاصينا ، وتقصيرنا ، وأخطائِنَا ؛ ما استطاع العبدُ فِعْلَ شيءٍ ، ولكن بكرمه وإحسانه يعفو عن الكثير ، والقليلُ الذي نفعلُهُ من الأعمال الصالحة – فلأنه الشكور المنان – يُعطيك عليه الأجر الجزيل ، وهذا ؛ لأنه الرحمن الرحيم ؛ فهذه صفاته ؛ فإذا أعطاك أو عَفَا عنك ، أو منَّ عليك ؛ فلا تغتر بنفسك ، ولكن : اعلَمْ أن عفوه عنك لأنه العفو، ومغفرته لك لأنه الغفور لا لأنك تستحقُّ .

فلماذا يوفقك الله ويعطيك ويجعلك تفعل الطاعات ، هل لأنك تستحقُّ ؟

لا ، ولكن ؛ لأنه الرحمن الرحيم الشكور ، وما أعطاه لك ؛ ليس عوضًا ، ولا تستحق ما منَّ بهِ عليك – مع كثرة ما فعلت من عمل – ؛ فالذي قدَّمتَهُ لله لا يساوي أبدًا ما منَّ به عليك بأيِّ وجهٍ من الوجوه ، ولكنه هو الرحمن الرحيم الشكور أعطاك ؛ لأنهُ علِمَ منك أنك تريد الحق، وتريد أن تطيعَهُ وتعبدَهُ ؛ فيَسَّر لك الطاعة ، وأعطاك الكثير على العمل القليل ؛ قال –

تعالى - : ﴿ فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧)﴾ [الليل:٥-٧] ؛ فإذا فُهِمت هذه المعاني ، واستوعبها العبدُ عَلِم أنه مهْمَا فعَلَ وقَدَّم ؛ فهو لا شيءَ ، وهذا كلُّهُ فَضْلُ الله ، ونِعْمَتُهُ عليْهِ .

قَالَ المُصَنِّفُ : (الثَّالِثَةُ : أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ ، وَوَحَّدَ اللهَ لا يَجُوزُ لَهُ مُوَالاةُ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ ، وَلَوْ كَانَ أَقْرَبَ قَرِيبٍ ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ - تَعَالَى - : (لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) [المجادلة: ٢٢]) .

لو حقَّق العبدُ التوحيدَ ، وعبد الله حقَّ عبادتهِ ، واعترف أنه هو الخالق والرازق ، وأن هناك حسابًا ، وبعثًا ، ونشورًا ، وأنه - سبحانه - لن يتركَنَا هملاً - كما ذكرنا - ، ثم أثْبَتَ الرسالة للنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وأطاعَهُ ؛ فلو حقَّقَ كلَّ ذلك على الوجْهِ الصحيحِ ؛ فمن المحال أنْ يواليَ مَنْ عادى الله ، أو يحبَّ عدُوَّه ؛ قال - تعالى - : ﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ [المجادلة:٢٢] .

واعلم أنَّ المودة لا تنافي البر ؛ لقولِهِ - تعالى - : ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة:٨].

○ الفرقُ بين الودِّ والبِرِّ:

فإذا قال قائل : إنَّ اللهَ قَالَ : إنَّنَا نبرُّهُم – كما في الآية – طالما لم يقاتلونَا ، ولم يخرجونَا، فلمَ تنهوننا عن محبتهم ومودتهم؟ فنقولُ له : البر غير الودِّ ؛ فالبر لا يلزمه المحبة ؛ فهو عطاءٌ لا يتبعه محبةٌ ؛ فليس كل من تُحسن إليه تُحبُّه ؛ فمثلاً : إذا كنتَ تسيرُ في الشارع ، ووجدت فقيرًا ، وأعطيتَهُ مالاً ، أو طعامًا ، هل معنى ذلك أنك تحبُّه ؟ لا ، ولكنك أحسنت إليه ؛ لأنَّ دينَنَا يدعو إلى الإحسان والرحمة ؛ فأنت أعطيتَ لهذا الفقير ، من باب (الإحسان) ، وليس من باب (الحبِّ) ؛ فاعلَمْ .

كذلك إذا رأيتَ مريضًا في الشارع ، وأنت لا تعرفه ؛ أهو مسلمٌ ، أو يهوديٌّ ، أو نصرانيٌّ ، ولكن وجدته في الطريق ، وينزف دمًا ، ومعك سيارة ؛ فستأخُذُهُ إلى المستشفى ؛ فهذا إحسانٌ منكَ وبرٌّ ، وهذا الذي أمر الله بِهِ في القرآن .

وأما المودَّةُ : فمنها الحبُّ ، ولا يمكن أن تحبَّ عدوَّ حبيبِكَ ؛ لأنَّ هذا ينافي الولاء والبراء ؛ لقولهِ – تعالى – : ﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ [المجادلة:٢٢].

والشُّبْهَةُ التي تُلْقَى عَلَيْنَا هِي :

كيف تقولون : لا يجوز محبةُ اليهوديِّ ، ولا النصاريِّ ، مع أن دينكم أباحَ الزواجَ من اليهودية والنصرانية ؟

فنقولوبالله التوفيق: أنَّ الأصل أنه لا يتزوج من أهل الكتاب ، ولكنه شيءٌ مباحٌ ، يمكنه فعله نعم، لكنه ليس الأصل ، لأنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال : « تُنْكَحُ المَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ : لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا ؛ فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ ، تَرِبَتْ يَدَاكَ »[1] ؛ فحثَّ الرجلَ على البحثِ

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٥٠٩٠) ، ومسلمُ (١٤٦٦) .

عن صاحبة الدين ، فالمرأة الجميلة الغَنِيَّةُ ذاتُ الحسبِ يريدُ المرءُ الزواجَ منها ؛ لأن هذهِ الأشياء مما تُرغِّب الرجال فيها ، ولكنه قال – بعدما ذكر هذه الصفات – : « فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ، تَرِبَتْ يَدَاكَ» ؛ أي : لا يغرك الجمال ، ولا المال ، ولا الحسب ؛ فيمكن إتيان ذلك عليك بالمصائب ؛ فأرشدَهُ إلى الحق والنجاة والفلاح ، وقال : « فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ، تَرِبَتْ يَدَاكَ» ؛ فهذا توجيهٌ نبويٌّ للبحْثِ عن ذاتِ الدِّيْنِ ، ولَيْسَ عن النَّصرانية أو اليهودية ، ولكن إذا حَدَثَ؛ فهو مباحٌ.

وإباحَةُ الزَّواجِ مِنْهُنَّ لا يدلُّ على محبَةِ دينِهِنَّ :

فهو يُبِرُّهَا ، ويحبُّهَا – كزوجة – ويُحسنُ إليها ؛ فيأتي لها بطعامها ، وكسوتها ، ولا يُسِيءُ معاملتَهَا ؛ فهذا إحسانٌ ، وقد قال رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « **فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ** » ([1]) ؛ حتى إذا سقيْتَ كَلْبًا ؛ فَلَكَ أجرٌ ، ولكن ليس من اللازمِ أن يحبَّ دينها ، ولكن ما يحدُثُ أنه يعامِلُها معاملةَ البِرِّ ، أما حبُّ عقيدتها ، وما عليه من الكفر ؛ فهذا هو المحذُورُ .

لا يجتمعُ الإيمانُ في القَلْبِ مع محبةِ أعداءِ اللهِ :

فالذي يعتقد أنَّ الله له صاحبةٌ ، وله ولدٌ !! كيف تحبُّهُ ؟! فهذه محاداة لله ورسوله .

إذا كان هناك رجلٌ له ولدٌ يحبُّه – جدًّا – ، وعَلِمَ أنَّ شخصًا يبغضُهُ ويحاربُهُ ؛ فهل يمكن أن يحبَّ هذا الشخصَ ؟

هل يمكِنُ أن يجتمِعَ حبُّك لابنك ومَنْ هُوَ عدوٌّ له ؟ مستحيل، لا يجتمعان .

([1]) أخرجه البخاريُّ (٢٣٦٣) ، ومسلمٌ (٢٢٤٤).

إِذَنْ ؛ كيف ندَّعي محبةَ اللهِ ومحبةَ رسولِهِ ، ونحنُ نحبُّ دين أعدائِهِ ؛ فهذه المسألة التي يريد (البعض) تمييعَهَا – أعني : مسألة الولاء والبراء – ، ويقولون : نحن تحت وطنٍ واحدٍ ، ونحن كلنا مصريُّون ؛ فهم لا يريدون قولَ : نحن مسلِمُون !! .

دِيْنُنَا يَنْهَانَا عن إلحاق الأذى بأهْلِ الكِتابِ :

فنحْنُ لا نقول : إنَّنَا نؤذِيْهِم ؛ لأنَّ ديننَا ينهانا عن ذلك ؛ كما في قولِ رسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " **أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا ، أَوِ انْتَقَصَهُ ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ ؛ فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** " (١) ؛ فلا يجوزُ قتلُ أهلِ الكتاب الذين يعيشون معي في بلدي ، طالما يجلِسُون – معي – في دار سلام ، ولا يؤذيني أحدٌ منهم ؛ فأعاملُهُم بالبر والإحسان ، ولكن ليس بالحبِّ – المودَّة – ، وبهذا يحدُثُ توازنٌ في المجتمع بين الناس ؛ فلا يكونوا في تشاجرٍ مع بعضهم البعض ، ولا يقتل المسلمُ النصرانيَّ المستأمن ، أو يقتل النصرانيُّ المسلمَ ؛ فيَنْهَارُ المجتمعُ !!

والشرعُ أمرَنَا بذلك ؛ لأن الله يعلمُ أنَّ النصارى واليهودَ والمسلمين سيعيشون في أرضٍ واحدةٍ ؛ فكيف نعيشُ – جميعًا – على أرض واحدة ، ونتقاتل مع بعضنا البعض على الدوام؟ ؛ فإذا آذيتَ النصرانيَّ – اليوم – وحرَّقتَ له – مثلاً – محلَّهُ ودكَّانهُ ؛ فغدًا يمكن أن يحرِقَ عليكَ بيتك !! وبالتالي لن نجد استقرارًا ولا أمانًا في المجتمعِ .

فلابُدَّ أن نعيش في سلامٍ ، ولكن ليس معناهُ أنني أحبُّهُ ؛ فقد نهى الله عن ذلك ، ومسألة الولاء والبراء تحتاج إلى تفصيلٍ أكثرَ نَذكُرهُ – فيما يأتي بإذن الله – .

---

(١) أخرجه أبوداود (برقم : ٣٠٥٢) ، وهو في " صحيح سنن أبي داود " (٣٠٥٢) ، و" الصَّحِيحةِ " (٤٤٥) .